

## إلى المفتونين بأخلاق المجتمعات الغربية

## خطبة الإمام الشهيد البوطي

تاريخ الخطبة: 2000/6/30

الحمد لله ثم الحمد لله الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، ياربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، سبحانك اللهم لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله وصفيّه وخليته خيرٌ نبي أرسله، أرسله الله إلى العالم كله بشيراً ونذيراً، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاةً وسلاماً دائماً متلازمين إلى يوم الدين، وأوصيكم أيها المسلمون ونفسي المذنبه بتقوى الله سبحانه وتعالى.

أما بعدُ فيا عباد الله..

إن الله سبحانه وتعالى عندما شرف عباده بهذا الدين الذي ابتعث به رسله وأنبياءه وختمهم بخاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، جعل من هذا الدين مصدر لكل خيرٍ للفرد وللمجتمع، وجعل من هذا الدين معين الأخلاق الإنسانية المثلى التي تُسعد الفرد وتُسعد المجتمع، ولعلكم جميعاً تذكرون مصداق هذا في كلام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عندما قال: ﴿إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق﴾. فبين الإيمان والإسلام من جانب والأخلاق الإنسانية السامية المثلى من جانب آخر تلازمٌ مضطربٌ دائم.

وعندما تقرأون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ ينبغي أن لا تفوتكم حقيقة هذا التلازم الذي يُعبر عنه بيان الله عز وجل، الذين آمنوا يهديهم ربهم إلى الأخلاق الفاضلة إلى السلوك المستقيم إلى التعامل الإنساني الرشيد، يهديهم ربهم إلى ذلك كله بإيمانهم، فالإيمان بالله عز وجل هو مصدر هذه الأخلاق الإنسانية المثلى.

والمعنى ذاته يتجلى في قوله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ والحياة الطيبة إنما تكون بمقومات لا بديل عنها هي الأخلاق، الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية.

من أمور العقيدة الأساسية في الدين الإسلامي أن نعلم هذه الحقيقة، ولكن في الناس من اضطربت لديهم هذه العقيدة ومن تسرب إليهم الشيطان من وراء هذا الاضطراب، فأوقعهم في غبش من فهم هذه الحقيقة التي أوضحتها لكم بما قد نص عليه كتاب الله وذكرته سنة رسول الله. إن نظر أحدهم إلى المجتمعات الإسلامية ردد مقولة قديمة لا نريد أن نناقشها: في العالم الإسلامي مسلمون ولا يوجد إسلام، وإن رمى ببصره شطر الغرب عاد ليقول لنا: أما في الغرب فيوجد إسلام ولا يوجد مسلمين.

كثيرون هم المفتونون بما يسمونه الأخلاق الإنسانية المثلى في المجتمعات الغربية، فإذا نظروا إلى مجتمعاتهم الإسلامية العربية هنا وهناك استأزوا وتحدثوا عن الثغرات وتحدثوا عن الانحرافات، ثم إنهم يقولون: هؤلاء مسلمون دون أن يوجد الإسلام، هذا التصور أيها الإخوة تصور خطير في باب العقيدة الإسلامية، أن يوجد مسلمون ولا يوجد إسلام، هذا كلام غير منطقي .. متى قلت: إن هذا إنسان مسلم فمعنى ذلك أن الإسلام متلبس في كيانه، ومتى قلت إن هذا المجتمع مجتمع مسلم فمعنى ذلك أن الإسلام يتألأأ في هذا المجتمع. نعم، الوازع الديني يقوى وقد يضعف، ومهمة المجتمعات الإسلامية أن ترعى الوازع الديني دائماً وأن تدفعه إلى الأمام دائماً بالوسائل التربوية المعروفة لدينا جميعاً، كلما قوي الوازع الديني كلما تسامت الأخلاق وتضاءل الفساد وذاب واضمححل، ولكن إذا ضعف الوازع الديني غابت هذه الحراسة التي ينبغي أن تكون يقظة دائماً.

هذا ما يمكن أن يقوله الإنسان، ولكن أن يقطع الصلة الوثقى بين الإسلام وبين آثاره الأخلاقية فهذا أمر خطير غير مقبول. ماذا عن المجتمعات الغربية التي يفتن بها كثير من أبناء جلدتنا اليوم أصحح أن تلك المجتمعات تتمتع بالأخلاق الإسلامية الراشدة وإن لم تكن تتمتع بمعتقدات الإسلام؟

لا أيها الإخوة لقد قلت في أكثر من مناسبة إنها عندما توجد ليست أخلاقاً إنسانية فضلاً عن أن تكون إسلامية ولكنها أخلاق اقتصادية، الغربيون يعلمون كيف يصلون إلى منافعهم وإلى مبتغياتهم سواءً

وجدوا في شركات، سواء وجدوا في مؤسسات، سواء كانت بيدهم مقادة عمل سياسي ... يعلمون كيف يصلون إلى مآربهم ولهم إلى ذلك سببٌ وخطط منها سبل مادية منظورة ومنها سبلٌ معنوية غير منظورة.

من هذه السبل الخفية ما يسميه البعض بالأخلاق الإسلامية هناك، إنها ليست أخلاقاً إسلامية، إنها أخلاق اقتصادية، إنما يتبينونها ويتدارسونها ويعلمونها موظفيهم والمعتمدين لديهم من أجل أن يتخذوا أقرب طريقٍ إلى أعظم غاية مادية يبتغونها، وآية ذلك أن هذا السبيل إن ضاق عليهم اتخذوا إلى أهدافهم وسائل أخرى تغيب عندها الأخلاق تغيب عندها هذه القيم كلها.

حدثني أحدهم وكان مريضاً يُمرض في إحدى المستشفيات في أوروبا عن الأخلاق الإنسانية المثلى التي عومل بها من قبل الأطباء ومن قبل المرضى والمرضات، أصغيت إليه وما أردت أن أرح شعوره وهو مريض .. ولكني أقول لكم أيها الإخوة لتتخذوا مناعة كافيةً في أنفسكم ضد هذا التصور الوهمي. هذا أسلوبٌ يعامل به الأطباء والمرضون مرضاهم سواءً كان الهدف جريمةً يريدون أن يرتكبوها أو كان هدفهم عملاً إنسانياً لغاية مادية يريدون ليصلوا إليها.

ألم تسمعوا بأنباء المستشفيات التي تحولت إلى مؤسساتٍ للتجارة بقطع غيار من أجساد بني الإنسان؟ لو أنك دخلت إلى إحدى هذه المستشفيات لرأيت هذه المعاملة الملائكية ذاتها لرأيت المرضى والمرضات والأطباء والطبيبات يعاملون ضحاياهم - ولا أقول مرضاهم - بهذه الطريقة المختلفة، والهدف معلومٌ ومرسوم.

حتى أولئك الذين يرتكبون الجرائم والذين أخذوا شهادات حرفية في الجرائم التي يرتكبوها، لا يرتكب أحدهم جريمة كما يرتكبها زيدٌ من الناس هنا، يملأ الدنيا من حوله صراخاً وضجيجاً ثم يختم ذلك بقذيفة يقذف بها ضحيته لا، يسير إلى هدفه بابتسامة، يسير إلى هدفه بوداعة، يُخرج مسدسه بكل طمأنينة ولا تفارق الابتسامة شفته .. وهكذا ينتهي من جريمة ويسير مطمئن القدم آمن البال وكأنه لم يفعل شيئاً، إنه أسلوب أيها الإخوة فافتحوا أبصاركم لتعلموا هذه الحقيقة.

منذ أيامٍ سألني شابٌ يعمل في إحدى الشركات الأوروبية قال لي: هذه الشركة عندما تصدر منتجاتها لا بد أن تضع على كل منتج قائمة المواد الأولية التي رُكب منها هذا الانتاج كما هو الشأن، ولكنها عندما ترسل منتجاتها إلى البلاد الأوروبية من حولها تكون دقيقة جداً في تنفيذ هذه المواصفات، فإذا أرسلت هذه المنتجات إلى البلاد العربية أو إلى أي بلدة مما يسمى العالم الثالث غيرت وبدلت ووضعت اللصاقة نفسها ولكن المضمون يختلف كل الاختلاف، سألني قائلاً هل يجوز لي أن أعمل في مثل هذه الشركة؟ استوضحته وظننت أنه مبالغ، ثم عرفت يقيناً أن الأمر كما قال، ثم عرفت أكثر من هذا، أن معظم الشركات تكيل بهذين المكيالين. اللصاقة واحدة والمواصفات واحدة لكن الكذب يبلغ إلى درجة الجريمة عندما تُبعث هذه المنتجات إلى بلدٍ إسلامي عربي إلى بلادنا وتكون دقيقة كل الدقة عندما ترسل إلى بلدة من هذه البلاد الأوروبية. كيف أيها الإخوة نُخدع بعد هذا بهذا الذي يتصوره البعض؟

سبعون مليون أيها الإخوة من الجائعين الذين ينتظرهم الهلاك والموت بسبب الجوع، ولو أن شركة عالمية واحدة اهتمت بهذه الملايين لاستطاعت أن تنهي هذه المجاعة في مثل طرفة عين بدون أي جهد. أين هي الأخلاق الراشدة ترعى إنسانية هؤلاء الناس الذين يسرون بخطى وئيدة إلى الهلاك؟ الشركات الماضية في إنتاج الأسلحة. شبكات من هذه الشركات تتصل بالقادة السياسيين، تتصل بالذين يتلاعبون بكرة السياسة إذ يتقاذفونها فيما بينهم، تعطي لهم الأموال السخية في سبيل أن يُنفخ في نيران الفتنة هنا وهنا وهناك حتى تقوم الحروب في هذه البقاع ولا تقعد، وحتى تستطيع هذه الشركات أن ترسل منتجاتها من الأسلحة وأن تبقى ناجحةً راجحةً على حساب من يدور عليهم ربح الهلاك في هذا العالم. أهذا هو شأن الناس الذين وجد لديهم الإسلام وإن لم يكونوا مسلمين؟

أيها الإخوة هذا التصور إن تسرب إلى مكان العقيدة من كيان الإنسان إنه لتصورٌ خطير. يمكن أن يمضي ويظير ويمتلخ العقيدة الإسلامية من جذورها، يمكن أن تبعث شكوكاً وريباً في عدالة الله سبحانه وتعالى، نحن المسلمين نتمتع بالإسلام حيثما وجد مسلمون ووجد إسلام، ولكن هنالك مآسٍ لسنا نخبرين في أمرها جُرت هذه المآس علينا جرأً، حُكمت هذه المآس علينا حكماً، وهذا أيضاً مثال يؤكد الحقيقة التي أقولها لكم أن الغرب لا يتمتع بأخلاقٍ إنسانية راشدة، هي أخلاق اقتصادية، هي أخلاق سياسية عندما يقتضي الأمر ذلك.

وعندما يتاح لمجتمعاتنا أن تتحرر تحراً كاملاً، وعندما يتاح لمجتمعاتنا أن تعلن عن قيمها ومبادئها لا بشعارات ترفعها فوق الرؤوس فقط بل بيقينٍ إيمانيٍّ تعتز به، فإن المثل العربي القائل المرء حيث يضع نفسه سيتجسد ولسوف تجدون أننا نحن أرباب الأخلاق الإنسانية المثلى، نحن الذين نتحلى بهذه الأخلاق سواءً على المستوى الفردي أو الاجتماعي الوازع الديني نحن المسؤولون عنه، ينبغي أن نمتن ونقوي ونغذي هذا الوازع الديني كلما ضعف وينبغي أن نكون حراساً عليه وهذا هو المأمول.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

